مقتطفات من كتاب
تنهيدة
يوسف الدموكي



حدوتة كتاب

إليك...لأنك تعرف لماذا!؟

كبسولة خير للبرمجيات

مصطفى علي سيد

(أبو مهاب)

https://cap-khir.com

sedratalmontha@gmail.com



إهداء

إلى هؤلاء...

الذين سيتنهدون كثيرًا

بين راحتَي هذا الكتاب

الرؤية التي أقصدها مختلفة تمامًا. ليست تلك التي تتصافح فيها العيون في اليوم ألف مرة؛ وإنما تلك التي تتعانق فيها القلوب في المرة الواحدةِ ألفَ يوم وليلة. إن الرؤية التي أقصدها هي تلك التي نرى من خلالها أحدَهم شفافًا، متجردًا من كل شيء.. عدا قلبه.

وإنني ما فكرتُ في الثورة عليك ساعةً إلا وخمدتْ ثورتي في لحظة؛ بشيءٍ في عينيكِ يقمعني، أو يقنعني؛ يحببني

في أغـ ... وتك

الحانـ ... ـيبك

بعينيـ ... ـيك:

«لا علـ ...

بيننا بحرٌ وحدودٌ؛ تطير فوقهما «صباحُ الخير»، وتتجاهلهما «تصبحين على لقيا»، وما زلتِ كلما أخبرتُك: «أنا بجانبكِ»؛ تصدقين كلماتي وتكذبين المسافات.

أما بعد، فاعلمي أنه كلما عزَّت اللقيا وقلَّت السقيا، وأجدبَت شغاف القلب في بُعدك، وذبلت زهور الروح من بَعدك؛ فصلاتي كلها استسقاء، وطيفك كله ضُحى، وما زلتُ على الأطلال أنتظر الندى.

... ـك،

يغشـ ... ـر؛

فأدر ... ـما

أنا، ...

... حي

أكثر حضورًا، وكلما حضرتِ في عيني؛ كنتِ عن الدنيا من دوني أكثر غيابًا.

بيننا بحرٌ وحدودٌ؛ تطير فوقهما «صباحُ الخير»، وتتجاهلهما «تصبحين على لقيا»، وما زلتِ كلما أخبرتُك: «أنا بجانبكِ»؛ تصدقين كلماتي وتكذبين المسافات.

أما بعد، فاعلمي أنه كلما عزَّت اللقيا وقلَّت السقيا، وأجدبَت شغاف القلب في بُعدك، وذبلت زهور الروح من بَعدك؛ فصلاتي كلها استسقاء، وطيفك كله ضُحى، وما زلتُ على الأطلال أنتظر الندى.

سيدتي،

شكرًا لعينيك اللتين تَصبران على ما تُبصران، وتؤمنانِ بالجمالِ القليلِ، وتكفرانِ بكل قبيحٍ وإن كثر.

شكرًا لعينيَّ جمالك، ولجمال عينيك، وأعتذر على ما تُبصرانِه، وأمتنُّ لما تصبرانِ عليه.

أما بعد، فليس على الفؤادِ أثقل من أن يسمع نبضاتِه تدقُّ في فؤاد غيره، أو أن يرى جزءًا منه، صار لا ينتمي إليه، أو كُلًّا، صار لجزءِ غيره.

إنَّ الكهف الذي يحتمي به المنكوبون، والشاطئ الذي يطفو عنده الغارقون، والملجأ الذي يختبئ فيه الخائفون، والحضن الذي يُعتصر بينه الباكون؛ يشعر أنه وحيدٌ تماما؛ كوحدات يونس في بطون الحوت والبحر والظلام، مع أن اسمه «يونس»؛ لكنه مستوحش.

ثم هل هناك دينٌ له من فقهائه الأصليين مَن يُفتي أنَّ الجمع والقصر في الصلاة رخصة للمسافر، إلا في أرض كانت فيها زوجته؟ فهي بمثابة نفي للسفر، وإبطال للغربةً، وتلخيص للوطن!

ويتساءل المساكين: لماذا لا ينشأ الحب من البداية بيننا ونحن أبناء شارع واحد؟ لماذا نحب مَن تفصل بيننا وبينهم بحار ومدن ومطارات وجوازات سفر؟

والإجابةُ: أنَّ الجيل الذي يريد أن يكتب حكايته بنفسه، لا بد أن يدفع ثمن الحبر من دمه أولًا.



اليوم هو المناسبة رقم (وحدَك تحفظين الرقم) وأنا بعيدٌ عن العيْن على مرمَى قدَرٍ منْها، قريبٌ من الفؤادِ ملتصقٌ

بالروح؛ لكنني موقنٌ أنَّ يومًا ما، سأمسح ما بين القوسين من أرقام، وأكتب: المناسبة (الأولى)، التي أنا فيها قريبٌ من العينً قربي من الفؤاد، ولا مناسبة أوْلى من كوني معك!

وأعدد الأسباب: لأن البرد قارسٌ في تراب الغربة، وأيام الأحباب مشغولة، وأنا في الموت -كما في الحياة- أحب الأنس، حتى ولو كنتُ في الظاهر منعزلا. وأقول: لعل الجنازة هناك ستكون حافلةً أكثر، وسيكون طين القبر أحنَّ عليَّ، وستكون الكتابةُ على الشاهد بالعربية، بل ربما وجدت في أيامي الأولى مَن يضع فوق قبري بعض الزهور والصور.

وأقول: ربما وجدتُّ بجواري أحدهم نائمًا مِن سنين؛ فأبلغه -كاذبًا- سلاماتِ أهلِه عليه، أو لعل نائمًا بعدي بسنين، يستطيع حمل السلامات إليَّ، أو لعلَّ آخر وافدٍ فينا يحكي لنا كيف تغيرت البلاد، وكيف نسانا الناس.

أقول: لو أننا في «عِز» الحياة نستطيع تجربة سكرات الموت! أو لو أننا في «عز» الموت، نحكي للذين لم يغادروا بعد، عن سكرات الحياة.

ولا أعلم هل كانتا تشبهانك فعلا؟ أم أنني اليوم كنتُ أشبهني حين كنتِ معي؛ فرأيتكِ في جميع الوجوه؟

في الحقيقة..

أسيرُ بجسمٍ واحدٍ، وأحملُ معي روحيْن!

ولعلَّ روحًا بعيدةً تصلها وتصلك، ووجهاً لا تراه ولا يراك، وعينينِ تسكنهما رغم النفي والتهجير- يغنونَك عن وجوهِ البشر المجتمعة في قارورةِ العالم، الذي تُجبَر على التعايش معه، دونَ مَن اخترتهم بمحض إرادتك.

لا يُطيِّب الروحَ المتعَبة إلا مَن يُشعرها أنَّ شوكةً في قدمِها طلقةٌ في قلبه، وأتفه اهتماماتها أولى اهتماماتِه، وأصغر تفاصيلها أكبر انشغالاته، وزواياها المهجورة هي محورُه وقطرُه ومركزه، ولا يصدقن محبٌّ في حبه، إلا إذا ترقرق الدمعُ الجاري على خد محبوبه، في عينيه هو أولا.

لا يُطيِّبُ الروحَ المتعبةَ إلا روحٌ مرِيحةٌ تملؤها.

هناك صنفٌ مِن العلاقات اسمه علاقة «مُرِيحة»، ولا يُمكن وصفه بأبلغ مِن ذلك؛ إنهم الأركان الآمنة، والزوايا الحرجة، ومرافئ البوْح، وشواطئ الأمان، وملاجئ الهروب.

إنهم الذين لا يغتابونك ولا يعاتبونك. إن غبتَ أبدوا لك اشتياقهم، وإن حضرت فتحوا لك أبوابَهم. إن اشتقت إليهم استحضرتهم، وإن حضروا يمكنك بين أحضانهم الغياب.

إنهم المرايا التي لو كنتَ منكسِرًا، انكسرَت لكَ؛ فظهرتَ فيها قائمًا.

وليس الحب بأن يكون المحبوبُ بلا عيوب، وإنما الحب أن يظل المحبوبُ محبوبًا برغم العيوب، وأن يبصرك بقلبِه ولو كان مكفوف البصر.

اعلما أنكما لستما نظرية رياضيات حتى يكون مجموع وجودكما اثنين، لكنكما معادلة مستقلة وعلم قائم بذاته؛ مصدر التمرد على العلوم، وعقدة جهل الفلاسفة.



الحب هو اثنان يقلبان نواميس الكون، ويخالفان قوانين الطبيعة، ويُغيران ثوابت الحياة، وهما في سلام نفسي داخلهما، يوحي بأن الكونَ كله على خطإٍ وهماً وحدهما على صواب.

يجعلان مجموع الاثنين واحدًا، ويقسمان أن القطبين المتشابهين يتجاذبان، ويخلقان نظرية تقول بأنه من الطبيعي أن يجتمع القمر مع الشمس في فلكٍ واحدٍ.

الحبُّ هو زهرةٌ تنبت بين ألف شوكةٍ، ودولةٌ تعلن استقلالها بين ألف عدو، وحصانٌ يواصل المسير -على قدمين- إلى الأبد.

وإنَّ الحب لا يتطلبُ منك كثرةَ الوصال ولا إلحاحَ الاتصال ولا ديمومةَ الوجود؛ وإنما أن يركَن المحبوبُ إليكَ وحدك مِن وسط الزحام؛ فيجد في روحك غنىً عمن سواك.

فسلامُ الله على قليلين؛ قليل الوصل معهم يكفي، ومرور طيفهم بالروح يشفي، وَجُودُ وُجُودِهم يُغني.. عن كثيرين، متزاحمين كـ «الهم على القلب» يرهقونه، حتى إذا همَّ الفؤاد بطلب العون انفضوا من حوله، ثم حضر واحدٌ لم يكن في زحامهم يومًا، لكنه يتجلى كلما انفض الزحام، وينير كلما انقضَّ الظلام.